

نصب عينيه فيستغفر الله ويتوب اليه منها . وثبت في الصحيح أن النبي ﷺ قال : « الأعمال بالخواتيم » والمؤمن اذا فعل سيئة فان عقوبتها تندفع بعشرة أسباب (أحدها) أن يتوب توبة نصوحا لم يتوب الله عليه ، فان التائب من الذنب كمن لا ذنب له (الثاني) أن يستغفر الله فيغفر الله تعالى له (الثالث) أن يعمل حسنات يححوها لقواه (إن الحسنات يذهبن السيئات) (الرابع) أن يدعو له اخوانه المؤمنون ويشفعون له حياً وميتاً (الخامس) أن يهد له اخوانه المؤمنون من ثواب أعمالهم ما ينفعه الله به (السادس) أن يشفع فيه نبينا محمد ﷺ (السابع) أن يتلميه الله في الدنيا بمصائب في نفسه وماله وأولاده وأقاربه ومن يحب ونحو ذلك (الثامن) أن يتلميه في البرزخ بالفتنة والضغطة وهي عصر القبر فيكفر بها عنه (التاسع) أن يتلميه الله في عرصات القيامة من أهوالها بما يكفر عنه (العاشر) أن يرحمه أرحم الراحمين . فمن أخطأته هذه العشرة فلا يلومن إلا نفسه كما قال تعالى في الأحاديث الآلهيات (إنما هي أعمالكم ترد عليكم فمن وجد خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومن إلا نفسه) ذكره شيخ الاسلام ابن تيمية . والمقصود أن المؤمن اذا كان يعلم أن القضاء خيراً له فيرضى عن الله بما قسم له ، كان قد رضى بما هو خيراً له ، وفي الحديث ، عن علي بن أبي طالب رضى الله عنه . قال : « ان الله يقضى بالقضاء فمن رضى فله الرضاء ومن سخط فله السخط »

﴿ الباب الحادى والعشرون ﴾

(فيما يقدر في الصبر والرضاء وينافيهما)

قد تقدم ان الصبر اعتراف العبد لله بما أصابه منه واحتسابه عند الله ، وانه حبس النفس عما لا يحسن فعله ولا يجمل ، وحبس اللسان عما لا يحسن قوله ، فاذا كان معنى هذه المقالة ان الصبر حبس اللسان عن الشكوى الى غير الله ، والقلب

عن التسخن ، والجوارح عن لطم الخدود ، وخش الوجوه ، وشق الثياب ، ونحو ذلك ، وأن العبد يرضى عن الله فيما يفعله به مما يحب وقوعه ، ومما يكره وقوعه ، فإذا وقع من العبد عكس ما ذكرته كان متلبساً بالنقص والذائل ، فمن شك ما به إلى مخلوق مثله كان قد شكاً ربه إلى بعض مخلوقاته ، فمثل كمثل من شكاً من برحمه ويلطف به ويعافيه ويغفره ونفعه (إلى من لا برحمه وليس بيده نفعاً ولا ضرراً . فهذا من عدم المعرفة وضعف الايمان شكاية الضرر النافع الذي بيده أزمة الأمور ، إلى من لا يضر ولا ينفع . قال شقيق البلخي : من شكاً مصيبة نزلت به إلى غير الله لم يجد في قلبه لطاعة الله حلاوة أبداً . وأما إخبار المخلوق بحاله لا على وجه الشكوى ، فإن كان للاستعانة بان يرشده أو يعاونه أو يوصله إلى زوال ضرره بما ينفعه مما هو أخبر منه به ، كالحجام يحجمه ويقلع ضرسه ، أو رجل صالح يدعو له ، فهذه الأمور على هذا الوجه لم تقدم في صبره لأن هذا كإخبار المريض الطبيب بحاله (وإخبار المبتلى في جسده ببلائه لمن يرجوا أن يكون فرجه على يديه ، وكذلك إخبار المظلوم لمن ينتصر به ، وإخبار المبتلى في دينه لمن هو مسترشد الهداية ليعين له طرق الهداية ان وفق لها ، وقد ثبت أن النبي ﷺ كان إذا دخل على المريض سأله عن حاله . ويقول : « كيف تجدك » وهو استخبار منه واستعلام بحاله . وأما الأئمة فهل يقدم في الصبر ؟ فيه روايتان عن الامام أحمد ، قال القاضي أبو الحسين : أصح الروايتين السكراهة لما روى عن طاووس انه كان يكره الأئمة في المرض * وقال مجاهد : يكتب على ابن آدم مما سطر به حتى أنينه في مرضه انتهى . وقال جماعة من العلماء : الأئمة شكوى بلسان الحال فينافي الصبر . وقال عبد الله بن الامام أحمد : قال لي أبي في مرضه الذي توفي فيه : أخرج إلى كتاب عبد الله بن ادريس ، فأخرجت الكتاب . فقال : أخرج أحاديث ليث بن أبي سليم ، فأخرجت أحاديث ليث بن أبي سليم . فقال : اقرأ

على أحاديث الليث. قال قلت لطلحة : إن طاروساً كان يكره الانين في المرض فما سمع به أنين حتى مات ، فما سمعت أبي أن في مرضه ذلك الى توفى * والرواية الثانية انه لا يكره ولا يقدر في الصبر بل قد يقدر في الرضا . قال بكر بن محمد عن أبيه سئل الامام أحمد عن المريض يشكو ما يجد من الوجع . فقال : يعرف فيه شيئاً عن رسول الله ﷺ . قال : نعم ، حديث عائشة ، وأرأساه . وجعل يستحسنه وقال المروزي : دخلت على أبي عبد الله أحمد بن حنبل وهو مريض فسألته ، فتغرغرت عينه وجعل يخبرني ما مر به في ليلته من العلة * قال العلامة ابن القيم رحمه الله : اعلم ان الأنين على قسمين ، أنين شكوى فيكره ، وأنين استراحة وتفرج فلا يكره ، والله تعالى أعلم *

﴿ فصل ﴾

ومما ينافي الصبر والرضاء ما يفعله أكثر الناس في زماننا عند المصيبة من شق ثيابهم ، واطم خدودهم ، وخش وجوههم ، وتنف شعورهم ، والتصفيق باحدى اليدين على الأخرى ، ورفع أصواتهم عند المصيبة ، ولقد حضرت عند شخص حين فارق الدنيا وهو من الجن فحين خرجت روحه أتوا بجمعة نشاب فكسروها بمجموعها واحدة بعد واحدة عليه ، وأتوا أيضاً بعدة الحرب فرموها عليه ، وأنا مع ذلك أعظمهم وأقول لهم : هذا حرام نهى الله ورسوله عن ذلك ، وهذا فيه اضاعة مال . فقال بعضهم لي : لم يصيبك ما أصابنا . فخرجت عنهم ، ثم إنهم بعد ذلك ندموا على ما فعلوا من اتلاف ما أتلفوه . ولهذا قال النبي ﷺ : « إنما الصبر عن الصدمة الأولى » لان في تلك الحالة هيجان الحزن واستغراق الذهن ، وذهول العقل بما دهمه ، وتمكن الشيطان منه ، فان الشيطان لعنه الله دائماً يتمكن من بني آدم عند ذهول عقولهم ، إما بسكر كما وقع في قصة هاروت وماروت ، وهي مشهورة حين دعتهما المرأة الى قتل الولد ، أو السجود للصنم ، أو شرب القدر من الخمر مراراً

وانهما شرابا القدرح من المسكر ، فلما شربا سكرًا ، فاتيا كلما أمرتهما به . وكذلك
 ذهول العقل عند الشق ، وعند الولاية ، وعند كثرة المال ، وعند المصيبة ، فكل
 هذه الأمور المعارضة للعبد في الغالب يحصل له بها ذهول العقل فيتمكن الشيطان
 بها منه ، نسأل الله العافية ودوام العافية ، والثبات في الأمر ، والعزيمة على الرشد
 فان النبي ﷺ كان يسأل الله في دعائه : « اللهم انى أسألك الثبات في الأمر »
 الدعاء المشهور . وكان يقول : « اللهم يامثبت القلوب ثبت قلوبى على دينك »
 فالثبات في الأمور مطلوب شرعا ، كما أن العبد منهى عن الأمور المذمومة من
 العجاج والطيش ، والعجلة والحدة ، وافتقاد الحزن وغير ذلك من الأمور المذمومة
 التي لأحصيا عدداً وبجاً ، لمن يقدم على الله تعالى مع هذه الأمور المذمومة التي
 نهى الشرع عنها ، غير نائب منها ، معتمداً على صومه وصلاته وحججه وعبادته ،
 وهو مع ذلك فرح مستبشر كأنه قد جاز الصراط وأعطي البراءة وجاءه البشير من
 الله تعالى بالفوز والخلاص ، وبجاً لمن يفتخر بأعماله الظاهرة وباطنه مثل المزابل ،
 نسأل الله تعالى حسن التوفيق *

﴿ فصل ﴾

وأما البكاء والحزن من غير صوت ولا كلام محرم ، فهو لا ينافى الصبر والرضا
 وقد تقدم لنا قريبا من ذلك . قال تعالى حكاية عن يعقوب عليه السلام : (وابيضت
 عيناه من الحزن فهو كظيم) . قال قتادة : كظيم على الحزن فلم يقل إلا خيراً .
 مع قوله تعالى : (انما أشكوا بئى وحزنى الى الله) وقوله تعالى عنه في أول السورة
 (فصبر جميل) وقد جاء في أثر مرفوع الى النبي ﷺ : « من بث فلم يصبر »
 لكن يعقوب عليه السلام ابيضت عيناه من البكاء ولم ينافى حزنه وبكائه صبره
 فانه عليه السلام ما شكاه بشه وحزنه إلى مخلوق ، وانما شكاه الى الله . وروى حماد
 ابن سلمة عن على بن زيد عن يوسف بن مهران عن ابن عباس رضى الله عنهم

عن النبي ﷺ . قال : « ما كان من العين ومن القلب فمن الله والرحمة ، وما كان من اليد واللسان فمن الشيطان » قال خالد بن أبي عثمان : مات ابن لى ، فرآنى سعيد بن جبير مقنماً . فقال لى : إياك والمنع فانه من الاستكانة . وقال بكر بن عبد الله المزنى : كان يقال من الاستكانة الجلوس فى البيت بمد المصيبة . وقال عبيد بن عمير : ليس الجزع أن تدمع العين ويحزن القلب ، ولكن الجزع القول السىء ، والظن السىء . ومات ابن لبعض قضاة البصرة فاجتمع اليه العلماء والفقهاء . فتذاكروا ما يتبين به جزع الرجل من صبره ، فاجمعوا انه اذا ترك شيئاً مما كان يصومه فقد جزع . وقال ابن عبد العزيز : مات ابن لى نفيس . فقلت لامه : اتق الله واحسب به عند الله واصبرى . فقالت : مصيبتى به أعظم من أن أفسدها بالجزع . وقل عبد الله بن المبارك رحمه الله : انى رجل يزيد بن يزيد وهو يصلى وابنه فى الموت . فقال : ابنتك يقضى وأنت تصلى : فقال : ان الرجل اذا كان له عمل يعمل به فتركه يوماً واحداً كان ذلك خلافاً فى عمله . وقال ثابت : أصيب عبد الله بن مطرف بمصيبة فرأيتة أحسن شىء شارة وأطيبه

﴿ فصل ﴾

ولا بد أن يعلم المصاب أن الذى ابتلاه بمصيبته أنه أحكم الحاكمين ، وأرحم الراحمين ، وأنه سبحانه لم يرسل البلاء ليهلك به ولا ليعذبه ، ولا ليجتاحه ، وإنما افتقده به ليتمتعن صبره ورضاه عنه وإيمانه ، وليسمع تضرعه وابتهاله ، وليراه طر يها على بابه لائذا بجناحه مكسور القلب بين يديه ، رافعاً قصص الشكوى اليه . قال الشيخ الامام العالم العارف المكاشف عبد القادر السكيانى رحمه الله عليه لابنه : يا بنى ان المصيبة ما جاءت تهلكك وانما جاءت لتمتعن صبرك وإيمانك ، يا بنى القدر سبع ، والسبع لا يأكل الميتة . انتهى كلامه . والمقصود أن المصيبة كبر العبد الذى يسبك بها حاصله فاما أن يخرج ذهباً أحمر ، وإما أن يخرج خبثاً كله كما قيل :

سبب كنهه ونحسبه لجيناً فأبدي الكبير عن خبث الحديد
فإن لم ينفضه هذا الكبير في الدنيا ، فبين يديه الكبير الأعظم ، فإذا علم
العبد أن إدخاله كبير الدنيا ومسببها خير له من ذلك الكبير والمسبب ، وأنه لا بد
من أحد الكبيرين ، فليعلم قدر نعمة الله عليه في الكبير العاجل ، فالعبد إذا امتحنه
الله بمصيبة فصبر عند الصدمة الأولى ، كما ورد في حديث أنس بن مالك رضي
الله عنه . قال : مر النبي ﷺ بامرأة عند قبر وهي تبكي فقال لها : « اتق الله
واصبري » فقالت : اليك عنى فانك لم تصب بمصيبتى ، ولم تعرفه . فقيل لها : إنه
النبي ﷺ فأتت باب النبي ﷺ فلم تجد عنده بوابين . فقالت : لم أعرفك
يارسول الله . قال : « إنما الصبر عند الصدمة الأولى » رواه البخارى . ولفظ مسلم :
أتى على امرأة تبكى على صبي لها . فقال لها : « اتق الله واصبري » فقالت : وما
تبالى بمصيبتى فلما ذهب قيل لها : إنه رسول الله ، فأخذها مثل الموت ، فأتت بابه
فلم تجد على بابه بوابين ، وذ كر تمام الحديث *

﴿ فصل ﴾

وهما يقدر في الصبر والرضا وينافيهما ، اظهار المصيبة والتحدث بها وإشاعتها
سواء كان الكلام بها بين الاصحاب أو غيرهم ، اللهم الا أن يقول لأصحابه أو
لأقاربه : مات فلان . يعنى والده أو ولده . ونحو ذلك ، وما يريد به اظهار المصيبة ؛
وإنما يريد اعلامهم لأجل الصلاة عليه وتشجيعه ونحو ذلك مما هو من فروض الكفايات
ويحصل لهم بذلك القراريط من الأجر ، وقد تقدم ان الاعلام بالميت هل هو نهي
أم لا ، والمقصود ان كتمان المصيبة رأس الصبر . قال الحسن بن الصباح في مسنده :
حدثنا خلف بن تميم ثنا زافر بن سليمان عن عبد العزيز بن أبي رواد عن نافع عن
عبد الله بن عمر رضي الله عنهما . قال : قال رسول الله ﷺ : « من البر كتمان
المصائب والأمراض والصدقة » وذ كر انه من بث لم يصبر * وروى من وجه

آخر من حديث أنس رضى الله عنه رفعه الى النبي ﷺ . قال : « من كنوز البر كتمان المصائب وما صبر من بث » ولما نزل في إحدى عيني عطاء الماء مكث عشرين سنة لا يعلم به أهله حتى جاء ابنه يوماً من قبل عينه التي أصيب فيها فلم يشعر به فعلم أن الشيخ قد أصيب * ودخل رجل على داوود الطائي في فراشه ، فرآه يزحف فقال : إنا لله وإنا اليه راجعون . فقال : مه لا تعلم بهذا أحداً . وقد أقعد قبل ذلك بأربعة أشهر لم يعلم بذلك أحد * وشكا الأحنف الى عمه وجع ضرسه فكرر ذلك عليه . فقال : ما تكرر على لقد ذهبت عيني منذ أربعين سنة فما شكونها الى أحد * ومن المناقاة للصبر والرضاء الهلع عند ورود المصيبة وهو الجزع . قال الله تعالى : (إن الانسان خلق هلوماً اذا مسه الشر جزوعاً واذا مسه الخير منوعاً) قال الجوهري : الهلع أفحش الجزع ، وقد هلع بالكسر فهو هلع وهلوع . وفي الحديث « شرما في العبد شح هالع وجبن خالع » قال العلامة ابن القيم رحمه الله : هنا في هذا الحديث أمران ، أمر لفظي وأمر معنوي ، فاما اللفظي فانه وصف الشح بكونه هالماً ، والهالع صاحبه وأكثر ما يسمى هلوماً ، ولا يقال : هالع له ، فانه لا يتعدى وفيه وجهان (أحدهما) انه على النسب ، كقولهم ايل نائم ، وشر قائم ، ونهار صائم ، ويوم عاصف كانه عند سيوبه على النسب أى ذو كذا * (والثاني) أن اللفظة غيرت عن بابها للأزدواج مع خالع وله نظائر . وأما المعنوي ، فان الشح والجبن أردى صفتين في العبد ، ولا سيما اذا كان شحه هالماً ، أى مولوة في الهلع ، وجبته خالماً ، أى قد خلع قلبه من مكانه ، فلا سماحة ولا شجاعة . كما يقال : لا يطرد ولا يترد انتهى كلامه * وروى سعيد بن منصور في سننه ، حدثنا اسماعيل بن عياش عن سليمان بن سليم عن يحيى ابن جابر أن رجلاً أتى النبي ﷺ . فقال : ما يحبط الأجر في المصيبة ؟ قال : « تصفيق الرجل بيمينه على شماله - والصبر عند الصدمة الأولى - فمن رضى فله الرضى ومن سخط فعليه السخط » وذكر باسناده أيضاً رفعه الى النبي ﷺ . قال : « إن القوم ليصابون بالمصيبة فيجزعون ويهلعون فما يكون لهم من أجرها شيء فيمر بهم الرجل

من المسلمين فيسترجع فيكتب الله عز وجل له أجر ما أعطاهم من تلك المصيبة»
 وقال ابن أبي الدنيا : حدثني أحمد بن عبد الأعلى حدثني شيخ من آل ميمون
 ابن مهران أن الحجاج أصيب بآبن له فاشتد جزعه عليه ، فدخل فغير ثيابه ومس
 شيئاً من طيب وجلس ، وأذن للناس فلم يتكلموا . فقال : حسبي ثواب الله من كل
 نكبة ، وحسبي بقاء الله من كل هالك ، تحدثوا .

﴿ فصل ﴾

والله تبارك وتعالى يبتلى عبده ليسمع شكواه وتضرعه ودعائه وصبره ورضاه
 بما قضاة عليه ، فهو سبحانه وتعالى يرى عباده اذا نزل بهم ما يختبرهم به من المصائب
 وغيرها ، ويعلم خائفة أعينهم وما تخفى صدورهم ، فيثيب كل عبد على قصده ونيته ،
 وقد ذم الله تعالى من لم يتضرع اليه ولم يستكن له وقت البلاء كما قال تعالى : (ولقد
 أخذناهم بالعذاب فما استكانوا لربهم وما يتضرعون) والعبد أضعف من أن يتجلد
 على ربه ولا يشكو اليه حاله ، فانه اذا كان سادات الخلائق وهم الأنبياء المعصومون
 صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين ، قد أنفى الله تعالى عليهم حيث شكوا ما بهم الى
 الله تعالى . فقال تعالى عن بعضهم : (وذا النون إذ ذهب مغاضباً فظن أن لن نقدر
 عليه فنادى في الظلمات أن لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين) وأثنى
 على أيوب بقوله : (إني مسني الضر وأنت أرحم الراحمين) وعلى يعقوب : (إنما
 أشكوا بني وحزني الى الله) وعلى موسى بقوله : (إني لما أنزلت الى من خير فقير)
 وقد شكوا اليه خاتم أنبياءه ورسله بقوله : « اللهم اني أشكو اليك ضعف قوتي وقلة
 حيلتي وهواني على الناس أنت أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين » الحديث
 المشهور في دعاء الطائف وهو دعاء عظيم ، فالشكوى الى الله تعالى لا تنافي الصبر
 ولا الرضاء ، بل إعراض العبد عن الشكوى الى غيره من جهله بخالقه وعدم رضائه
 وصبره بما ابتلاه الله تعالى به والله تعالى يعقت من يشكوه الى خلقه ، ويجب من

يشكو ما به اليه . قيل لبعضهم : كيف تشكى الى من لا يخفى عليه خافية في
الأرض ولا في السماء ؟ فقال :

قالوا أتشكو اليه ما ليس يخفى عليه
فقلت ربي يرضى ذل العبيد لديه

وذكر ابن أبي الدنيا عن علي بن الحسن . قال : قال رجل : لأمتحنن أهل
البلاء . قال فدخلت على رجل بطرسوس وقد أكلت الأكلة أطرافه ، فقلت له :
كيف أصبحت ؟ قال : أصبحت والله وكل عرق وكل عضو يألم على حسنة من
الوجع ، وان ذلك لبعين الله ، أحبه الى أحبه الى الله عز وجل ، وددت ان ربي قطع
منى الأعضاء التي اكتسبت بها الاثم وانه لم يبق منى الا لسانى يكون له ذا كراً .
قال : فقال له رجل : متى بدأت هذه العلة ؟ قال : أما كفئك الخلق كلهم عبيد الله
وعياله فاذا نزلت بالعباد علة فالشكوى الى الله ليس يشكى الله الى العباد *

﴿ الباب الثاني والعشرون ﴾

(هل المصائب مكفرات أو مشيات)

وقد اختلف العلماء في هذا الباب اختلافاً كثيراً ، وتباينوا فيه تبايناً شديداً
فذهب بعض العلماء الى انه يثاب على كل مصيبة ، وذهب طائفة أخرى من العلماء
الى أنه لا يثاب على المصائب مطلقاً ، وانما يثاب على الصبر عليها ، حتى قطع به ابن
عبد السلام في قواعده ، وذهب شيخ الاسلام ابن تيمية وجماعة من العلماء الى أن
اطلاق القول بالثواب ، واطلاقه بعدم الثواب كلاهما يرد عليه ما يدفعه ، وان ثم فرق
مؤثراً نذكره فيما بعد ان شاء الله . وقد احتجت كل طائفة بظواهر مرجحة لما
ذهبت اليه كما نمنذ كره بعد . احتجت طائفة من العلماء الى انه يثاب على كل مصيبة
بقوله تعالى : (ذلك بانهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة في سبيل الله ولا يظأون